القيم الأخلاقية في شعر إسماعيل صبري «أبي أميمة»: دراسة تحليلية

محمد ربيع الأحسن
المحاضر، القسم العربي، جامعة شيتاغونغ، شيتاغونغ، بنغلاديش
البريد الإلكتروني: rabiul.ahsan@cu.ac.bd
المملكة المغربية

ملخص الدراسة

تستهدف هذه الدراسة استجلاء تمثلات القيم الأخلاقية في شعر الشاعر المصري إسماعيل صبري «أبي أميمة» على استقراء الشواهد الثابتة في ديوانه، وتصنيفها، وتحليل طرائق تشكيلها الدلالي والفني، عبر المنهج الوصفي التحليلي مستفيدًا من التحليل النصي والبلاغي والدلالي، ويرجع إلى الأصول القرآنية عند ثبوت الصلة دون أن يتحول إلى بحث في الاقتباس أو التناص. وقد أظهر التحليل حضور قيم فردية واجتماعية ودينية، أبرزها: الصبر، والعفة، والحياء، والتواضع، والعفو، والرحمة، والوفاء، والصدق، والأمانة، والعدل، والقناعة، والاستقامة، والكسب الحلال، ومجاهدة الهوى. وتبين أن هذه القيم لا ترد مضامين وعظية مجردة، بل تسهم في بناء النص بالأمر والنهي، والتكرار، والتوازي، والمقابلة، والصورة الاستعارية، والنموذج القصصي، والإيقاع. وكشفت الدراسة عن اختلاف وظيفي بين شعر الكونيات ذي الطابع التوجيهي والشعر الوجداني الذي تتحول فيه بعض القيم إلى مكوّن من التجربة الذاتية.

الكلمات المفتاحية: إسماعيل صبري؛ أبو أميمة؛ القيم الأخلاقية؛ الشعر العربي الحديث؛ الأخلاق الإسلامية؛ التحليل الشعري.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

:"Moral Values in the Poetry of Ismail Sabri "Abu Umayma

An Analytical Study

Abstract

This study examines the moral values in the poetry of the Egyptian poet Ismail Sabri "Abu Umayma" by analyzing verified poetic evidence from his Diwan. It identifies and classifies these values and examines their semantic and artistic construction. Adopting a descriptive-analytical approach supported by textual, rhetorical, and semantic analysis, it refers to Qur'anic ethical principles only when a clear connection exists. The analysis reveals a range of individual, social, and religious values, including patience, chastity, modesty, humility, forgiveness, mercy, loyalty, honesty, trustworthiness, justice, contentment, righteousness, lawful earning, and resistance to desire. These values do not appear as abstract exhortation; they shape the poems through imperatives and prohibitions, repetition, syntactic parallelism, contrast, metaphor, narrative example, and rhythm. The study also shows a functional difference between the didactic cosmological poetry and the lyrical poetry, in which some values become part of personal experience.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المقدمة

تُعد القيم الأخلاقية حجر الزاوية في بناء الوعي الإنساني وتوجيه السلوك؛ فالقيمة في الاصطلاح معيار يهتدي به الناس في الحكم على أعمالهم وسلوكهم (الشافعي، 1971، ص. 375؛ المانع، 2005، ص. 16)، والأخلاق هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة (الجرجاني، 2004، ص. 89). ويتيح الأدب مجالًا تتلاقى فيه الفكرة مع الشعور والصورة واللغة. ولا تقتصر قيمة النص الشعري على التصريح بالمبدأ الأخلاقي أو الدعوة إليه، بل قد تظهر القيمة أيضًا في الموقف، أو النموذج الإنساني، أو الصورة الفنية، أو في طريقة بناء العلاقة بين المتكلم والآخر.

ومن الشعراء الذين تظهر في شعرهم مادة أخلاقية جديرة بالتحليل إسماعيل صبري المصري، المكنّى بأبي أميمة، وهو غير إسماعيل صبري باشا المشهور وإن اشتركا في الاسم. وقد نبّهت الدراسة المتخصصة في أبي أميمة إلى هذا الالتباس صراحةً، وإلى ما ترتب عليه من تفاوت شديد في شهرة الشاعرين (الحسيني، 2011: 151)

وتكشف بنية الديوان عن تنوع واضح في أغراضه؛ فالجزء الأول مخصص لـ«الكونيات»، وفيه «النونية الكبرى» و«الهمزية الكبرى» و«مرآة الزمن» و«رحلة»، ويضم الجزء الثاني القصائد الاجتماعية والوجدانية، ويبدأ الجزء الثالث بـ«غزل الأغاني» (صبري، 2011: 5-6) وهذا التنوع يتيح دراسة القيمة الأخلاقية في أكثر من سياق: سياق الوعظ والإرشاد، وسياق التأمل الديني، والسياق الاجتماعي، والتجربة الوجدانية.

ويتجلى الخطاب الأخلاقي بوضوح في «النونية الكبرى» حين يقول الشاعر في «سبيل الإيمان»:

واطلبوا الرزق طيبًا وحلالًا

واحفظوه بالبر والإحسان

واجعلوا العدل إن حكمتم شعارًا

واذكروا بطش صاحب السلطان

وتواصوا بالحق واسعوا كراما

واستعينوا بالصبر والإيمان

(صبري، 2011: 21)

يجمع المقطع الكسب الحلال، والبر، والإحسان، والعدل، والحق، والصبر في إطار إيماني واحد، وهو ما يسوّغ دراسة هذه القيم لا ألفاظًا متناثرة، بل عناصر دلالية تؤدي وظائف فكرية وفنية داخل القصيدة. ومن هذا المنطلق لا يفترض البحث قائمة أخلاقية محددة قبل قراءة النصوص، بل يتخذ الشاهد الشعري أصلًا للاستخراج والتصنيف، ويستبعد كل قيمة لا يقوم عليها دليل نصي واضح.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أهمية البحث

تنبع أهمية البحث من جمعه بين تحليل المضمون الأخلاقي والبنية الفنية؛ فالقيمة لا تُدرس فكرةً وعظية منعزلة، بل من حيث تجسّدها في اللغة والصورة والإيقاع والأسلوب والموقف الشعري. وتكتسب الدراسة أهمية توثيقية أيضًا، إذ تحرص على الفصل بين أبي أميمة وإسماعيل صبري باشا، وهو فصل يفرضه اشتراكهما في الاسم، وقد نبّهت إليه الدراسات المتخصصة. (الحسيني، 2011: 151)

مشكلة البحث

تكشف مراجعة الدراسات المتاحة عن إسماعيل صبري أبي أميمة أن شعره دُرس من جوانب موضوعية وفنية متعددة؛ فتناولت بعض الدراسات شعر الكونيات والغزل والخصائص الفنية، واتجه بعضها إلى صورة المرأة، وبعضها إلى الاقتباس القرآني، وركزت دراسات أخرى على الإيقاع الداخلي والموسيقا الخارجية. غير أن المادة التي تم التحقق منها لا تقدم دراسة تجعل القيم الأخلاقية في شعر أبي أميمة، من حيث أنواعها وصياغتها ووظائفها وصلتها بالتصور الإسلامي، محورًا مستقلًا جامعًا.

وقد انتهى الحسيني في دراسته الموضوعية والفنية إلى أن شعر الكونيات يغلب عليه السرد القصصي التاريخي والأسلوب الإرشادي التقريري، بينما يظهر البعد الذاتي بصورة أوضح في الغزل (الحسيني، 2011: 229) ورأى أن تجربة الكونيات تستند إلى التراث الإسلامي وأنها أقرب إلى التذكير منها إلى تجربة روحية نفسية خالصة (الحسيني، 2011: 230) وتتحدد مشكلة البحث، من ثَمّ، في الكشف عن القيم الأخلاقية التي يثبتها النص الشعري نفسه، بالمعنى الذي يحدده المبحث الأول لمصطلح «القيمة الأخلاقية»، وفي بيان كيفية توزعها وطرائق بنائها لغويًا وفنيًا، وأبعادها الفردية والاجتماعية والدينية، ومدى اتصالها بالتصور الأخلاقي الإسلامي عند ثبوت ذلك.

أسئلة البحث

1. ما أبرز القيم الأخلاقية التي تثبتها النصوص الشعرية في ديوان إسماعيل صبري أبي أميمة؟
2. كيف تتوزع هذه القيم بين تهذيب الفرد، وعلاقته بالآخر والمجتمع، والبعد الديني؟
3. ما الوسائل اللغوية والبلاغية والفنية التي وظّفها الشاعر في التعبير عن هذه القيم؟
4. كيف يختلف تمثيل القيمة بين شعر الكونيات والخطاب الوعظي من جهة، والشعر الوجداني والغزلي من جهة أخرى؟
5. ما القيم التي يمكن تأصيلها تأصيلًا إسلاميًا واضحًا؟
6. ما الوظائف الفكرية والدلالية والجمالية التي تؤديها القيم الأخلاقية داخل التجربة الشعرية؟

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أهداف البحث

يهدف البحث إلى استقراء القيم الأخلاقية التي يثبتها شعر أبي أميمة، وتصنيفها في ضوء طبيعة النصوص، وتحليل طرائق تشكيلها اللغوي والبلاغي، والكشف عن أبعادها الفردية والاجتماعية والدينية، وبيان الوظائف الفنية والجمالية التي تؤديها في القصيدة، فضلًا عن تحديد صلتها بالتصور الأخلاقي الإسلامي عندما يتوافر دليل قرآني أو ديني واضح.

منهج البحث

يعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، مع الإفادة من التحليل النصي والبلاغي والدلالي، ويستند إطاره المفاهيمي إلى المعنيين اللغوي والاصطلاحي للقيمة والخُلُق كما يعرضهما المبحث الأول. وتسير عملية التحليل وفق الخطوات الآتية: تثبيت الشاهد من الديوان، وتحديد سياقه، واستخراج القيمة الأخلاقية التي يدل عليها، وتحليل ألفاظها وأساليبها وصورتها ووظيفتها، ثم بيان صلتها بالتصور الإسلامي إذا قام دليل واضح على هذه الصلة. ولا يعدّ مجرد الاشتراك في معنى حسن دليلًا كافيًا للحكم بأن القيمة «إسلامية» في سياق مخصوص، بل يفرّق البحث بين القيمة الإنسانية العامة وبين القيمة التي تربطها القصيدة نفسها بالإيمان أو مراقبة الله أو أصل قرآني واضح.

الدراسات السابقة

تُعدّ دراسة عمر عبد العزيز الحسيني «إسماعيل صبري المصري (أبو أميمة) شاعرًا» من أكثر الدراسات المتاحة شمولًا؛ إذ تناولت الشاعر من الناحيتين الموضوعية والفنية، ودرست شعر الكونيات والغزل وبعض الخصائص الأسلوبية، وانتهت إلى غلبة السرد والوعظ في الكونيات مع حضور أوضح للذات والعاطفة في الغزل (الحسيني، 2011، ص. 229). واتجه محمود سليمان إسماعيل وجمال عبد الحميد زاهر في بحث «صورة المرأة في شعر إسماعيل صبري أبي أميمة» إلى دراسة حياة الشاعر وبعض خصائصه، ثم صورة المرأة في شعره، معتمدَين المنهج الوصفي وتحليل العناصر الفنية (إسماعيل وزاهر، 2021: 286).

وأشار البحث نفسه إلى دراسة سابقة لحسن محمد الشريف في الاقتباس القرآني في «النونية الكبرى» و«الهمزية الكبرى»، وهو ما يدل على وجود اهتمام بالعلاقة القرآنية البلاغية، دون أن يكون موضوع تلك الدراسة القيم الأخلاقية في مجموع شعر أبي أميمة (إسماعيل وزاهر، 2021: 286).

وفي الجانب الإيقاعي، تناولت هناء محمد محمود محمد ووفاء عبد الله محمد أحمد «بنية الإيقاع الداخلي في شعر إسماعيل صبري (أبو أميمة)»، واتخذتا «النونية الكبرى» نموذجًا، وركزتا على إيقاع الأصوات والكلمات والجمل ووظيفته الجمالية (محمد وأحمد، 2025أ، ص. 97). كما درستا الموسيقا الخارجية في «النونية الكبرى» و«الهمزية الكبرى» و«مرآة الزمن»، مع التركيز على الوزن والقافية وصلتهما بتماسك النص وتأثيره في المتلقي (محمد ومحمد، 2025ب، ص. 16).

الفجوة البحثية

يتضح مما سبق أن الدراسات السابقة اتجهت إلى الدراسة العامة لشعر أبي أميمة، وصورة المرأة، والاقتباس القرآني، والإيقاع الداخلي، والموسيقا الخارجية. أما البحث الحالي فيتخذ القيمة الأخلاقية ذاتها محورًا للتحليل؛ فيبدأ بالشاهد، ثم يستخرج القيمة، ويدرس صيغتها الفنية ودلالتها ووظيفتها وصلتها بالتصور الإسلامي حيث تثبت. ومن ثَمّ لا يدّعي البحث أنه أول دراسة أشارت

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إلى الأخلاق أو الوعظ عند أبي أميمة، وإنما تتمثل إضافته في استقراء القيم وتصنيفها وتحليل وظائفها النصية والفنية بصورة مستقلة ومنظمة.

حدود البحث

تقتصر الدراسة على الشعر الثابت في ديوان إسماعيل صبري لأبي أميمة. ويثبت الديوان أن مؤلفه هو «إسماعيل صبري (أبو أميمة)»، وأن أصله صدر سنة 1938م، بينما صدرت النسخة المعتمدة عن مؤسسة هنداوي سنة 2011م (صبري، 2011، ص. 4). وتستبعد الدراسة ما يخص إسماعيل صبري باشا، كما تستبعد «ربيبة الكوخ» من مدونة الشواهد الشعرية؛ لأن الدراسة المتخصصة في أبي أميمة تثبت أنها من الأعمال التي ترجمها، وليست من شعره الأصيل (الحسيني، 2011، ص. 153).**خطة البحث**

ينتظم البحث في تمهيد وخمسة مباحث: يعرض التمهيد لحياة أبي أميمة واتجاهات شعره؛ ويحدد المبحث الأول مفهوم القيمة والأخلاق لغةً واصطلاحًا، ثم المفهوم الإجرائي للقيم الأخلاقية في الدراسة؛ ويعالج المبحث الثاني القيم المتصلة بتهذيب الذات؛ ويتناول المبحث الثالث القيم الاجتماعية؛ ويحلل المبحث الرابع القيم الإنسانية والدينية؛ ويختص المبحث الخامس بالوظائف الفنية والدلالية للقيم. ثم تأتي الخاتمة والنتائج والتوصيات وقائمة المراجع.

التمهيد: إسماعيل صبري أبو أميمة وشعره

أولًا: حياته

وُلد إسماعيل صبري المصري، المكنّى بأبي أميمة، سنة 1886م، وتوفي سنة 1953م (الحسيني، 2011، ص. 153). وتشير الدراسة المتخصصة إلى قلة المعلومات التفصيلية المتاحة عن حياته، وإلى أن ظروفه لم تمكّنه من إتمام التعليم العالي، فاكتفى بالمرحلة الثانوية ثم عمل في التعليم (الحسيني، 2011، ص. 152). وفي مرحلة متأخرة من حياته كفّ بصره وترك الخدمة، وهو مما يُذكر في المادة السيرية المحدودة التي أمكن توثيقها (الحسيني، 2011، ص. 152). ولم يقتصر نشاطه على الشعر؛ فقد عُرف بإجادة الخط والرسم، وعمل في تدريس الرسم، ومارس الكتابة والترجمة (الحسيني، 2011، ص. 153).

ثانيًا: اتجاهات شعره

يضم الديوان «الكونيات»، ثم القصائد الاجتماعية والوجدانية، ثم «غزل الأغاني» (صبري، 2011، ص. 5–6). ويرى الحسيني أن الكونيات عند أبي أميمة تتسم بنزعة دينية تأملية، وأن السرد والوعظ من أبرز خصائصها، بينما تميل قصائد الغزل إلى التعبير الذاتي والعاطفي (الحسيني، 2011، ص. 229). وهذا الاختلاف مهم لدراسة القيم؛ لأن القيمة التي تظهر في الكونيات أمرًا عامًا قد تتحول في الغزل إلى موقف شخصي وتجربة داخلية.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المبحث الأول: مفهوم القيم الأخلاقية

يقتضي تحليل القيم الأخلاقية في نص شعري ضبط المصطلح أولًا؛ ولذلك يعرض هذا المبحث المعنى اللغوي والاصطلاحي لكل من «القيمة» و«الأخلاق»، ثم يحدد المفهوم الإجرائي الذي تعتمده الدراسة. وقد اقتُصر في العرض على ما يخدم التطبيق؛ لأن غرض البحث تحليل النص الشعري لا استقصاء النظريات الفلسفية في الأخلاق.

أولًا: القيمة

لغةً: القيمة في أصلها من مادة (ق و م)، وتدور على معاني الاستقامة والاعتدال والثبات (ابن فارس، 1979، ص. 43). وتأتي أيضًا بمعنى ثمن الشيء الذي يُقاوَم به ويُقدَّر (ابن منظور، 1414هـ، ج. 12، ص. 500). وقد دلّ الأصل نفسه في القرآن الكريم على الاستقامة، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30].

اصطلاحًا: تتعدد تعريفات القيمة بتعدد العلوم، لكنها تلتقي على أنها معيار يوجّه سلوك الإنسان؛ فهي عند الشافعي (1971) المعايير والمقاييس المعنوية التي يتفق عليها الناس، ويتخذون منها ميزانًا يزنون به أعمالهم (ص. 375)، وعند المانع (2005) حكمٌ يصدره الإنسان على شيء ما، مهتديًا بمجموعة المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع (ص. 16).

ثانيًا: الأخلاق

لغةً: الأخلاق جمع «خُلُق»، وهو في المعاجم الخليقة، أي الطبيعة (رضا، 1380هـ، ج. 2، ص. 325)، وقيل: الخُلُق السجية (الزبيدي، د.ت.، ج. 25، ص. 257). ويفرّق ابن منظور (1414هـ، مادة «خلق») بين الخَلْق، أي الصورة الظاهرة، والخُلُق، أي الصورة الباطنة. وقد ورد اللفظ في القرآن الكريم وصفًا للنبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، وفي الحديث النبوي: «إنما بُعثتُ لأُتمِّمَ صالحَ الأخلاق» (البخاري، 2003، ص. 148).

اصطلاحًا: عرّف الجرجاني (2004) الخُلُق بأنه «عبارةٌ عن هيئةٍ للنفس راسخةٍ، تصدر عنها الأفعال بسهولةٍ ويُسرٍ من غير حاجةٍ إلى فكرٍ وروّية» (ص. 89)، وهو المعنى نفسه الذي ورد عند الغزالي (د.ت.، ج. 3، ص. 56). ونبّه الميداني (1999) إلى أن الخُلُق لا يدل على المحمود وحده، بل هو تكوين خاص ثابت في النفس، فطري أو مكتسب، له ظواهر في السلوك (ص. 17).

ثالثًا: المفهوم الإجرائي للقيم الأخلاقية في الدراسة

في ضوء المعنيين السابقين تستخدم الدراسة مصطلح «القيم الأخلاقية» استخدامًا إجرائيًا للدلالة على المعاني المعيارية التي يعرضها النص بوصفها سلوكًا محمودًا ينبغي التزامه، أو سلوكًا مذمومًا ينبغي تجنبه، سواء اتصلت بعلاقة الإنسان بنفسه أو بالآخر أو بالمجتمع أو بالمبدأ الديني. وهذا الاختيار متسق مع ما نبّه إليه الميداني من أن الخُلُق لا يقتصر على المحمود. وهو تعريف إجرائي خاص بالدراسة، غايته ضبط التحليل النصي لا بناء نظرية فلسفية مستقلة في الأخلاق؛ وهو يتعلق بالمعايير التي يعلنها النص، ولا يدّعي الحكم على أخلاق الشاعر الشخصية أو على رسوخ هذه الصفات في نفسه.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

كما أن مجرد ذكر كلمات مثل «الصبر» أو «العدل» لا يكفي للحكم على وظيفة أخلاقية مستقلة، بل لا بد من النظر إلى السياق، وطريقة بناء المعنى، وموقف الشاعر منها. ويمكن، من خلال الاستقراء، تصنيف القيم الثابتة في الديوان إلى ثلاثة مجالات رئيسة: القيم المتعلقة بتهذيب الذات، والقيم الاجتماعية التي تنظّم العلاقة بالآخر، والقيم الإنسانية والدينية التي يلتقي فيها الجانب السلوكي بالمرجعية الإيمانية. وهذا التصنيف إجرائي وليس تقسيمًا صارمًا، إذ إن بعض القيم، مثل الوفاء والصبر، تتجاوز المجال الواحد بحسب السياق.

المبحث الثاني: القيم الأخلاقية المتعلقة بتهذيب الذات

أولًا: الصبر والمثابرة

يُعدّ الصبر من أبرز القيم الظاهرة في شعر أبي أميمة. ففي قصة «غرور ابن حواء» يقول:

وتوكّل على المهيمن واصبر

واذكر الموت بين آنٍ وآن

(صبري، 2011، ص. 22)

يربط البيت بين التوكل والصبر وذكر الموت، فلا يبقى الصبر احتمالًا نفسيًا مجردًا، بل يغدو جزءًا من رؤية دينية للمحنة والمصير. وتكرار الأوامر «توكّل» و«اصبر» و«اذكر» يحوّل القيمة من فكرة إلى توجيه سلوكي. وفي الهمزية يقول:

واستعينوا بالصبر في كل خطب

فهو للنفس والفؤاد الدواء

(صبري، 2011، ص. 76)

يحوّل الشاعر المفهوم هنا من تقرير إلى تصوير، إذ يجعل الصبر «دواءً» للنفس والفؤاد، فتنتقل الفضيلة المجردة إلى صورة علاجية ملموسة. وللاستعارة دور إقناعي؛ فالمطلوب من الإنسان ألا يتحلى بالصبر واجبًا فحسب، بل يتخذه علاجًا فاعلًا للألم الداخلي. ويوافق هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]، ولا سيما في الأمر بالاستعانة بالصبر.

ويذكر الشاعر أيوب عليه السلام مثالًا على الصبر والثبات في الابتلاء، فيقول:

أين من قاوم البلاء بصبر

وثبات ولم يفده الدواء

(صبري، 2011، ص. 69)

يتحول الصبر هنا من توجيه مباشر إلى سرد قصصي، إذ تتجسد القيمة في نموذج نبوي. وتتكشف قوة الصورة من التباين بين عجز الدواء وثبات الصابر، فيصبح الثبات موقفًا روحيًا وأخلاقيًا يواجه ما يعجز العلاج المادي عن تخفيفه.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ثانيًا: العفة والحياء

يقول أبو أميمة:

يا ابن حواء دع غرورك واعلم

أن من عفّ عاش في اطمئنان

(صبري، 2011، ص. 22)

يربط الشاعر العفة بالطمأنينة، فيصوّرها مصدرًا للأمان الداخلي لا قيدًا أو حرمانًا. ويوسّع توجيه الخطاب إلى «ابن حواء» دائرة المخاطب من فرد بعينه إلى الإنسان عامة. ويتضح الحياء أكثر في قوله:

واغضضوا الطرف فالعيون شهود

واكبحوا النفس فالكمال الحياء

(صبري، 2011، ص. 77)

يقابل البيت بين ضبط الخارج وضبط الداخل: فغضّ الطرف ضبط للحاسة، وكبح النفس سيطرة على الدافع. وتكشف كلمة «اكبحوا» عن صورة حركية مأخوذة من كبح الدابة، فتتحول النفس إلى قوة تحتاج إلى قيادة وضبط. ويتصل «غض الطرف» اتصالًا واضحًا بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: 30].

ثالثًا: التواضع ورفض الكبر

يقول الشاعر:

وتواضع واصفح وسامح كريمًا

واجعل الحلم رائد الوجدان

(صبري، 2011، ص. 22)

يدمج البيت بين التواضع والصفح والتسامح والحلم، فيجعل الأخلاق شبكة متصلة لا صفات منفردة. ويعود المعنى في الهمزية بصياغة أكثر تصويرًا:

واجعلوا حلية التواضع تاجًا

واحذروا أن تغركم كبرياء

(صبري، 2011، ص. 77)

ومن ألطف ما في البيت تحويل التواضع إلى «حلية» و«تاج»؛ فالتاج رمز الرفعة، غير أن الشاعر يجعل الرفعة الحقيقية في التواضع، ويقابله بالكبرياء التي تفضي إلى الغرور. وبذلك تؤدي الصورة وظيفة قيمية وجمالية معًا.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

رابعًا: كظم الغيظ والصفح

يقول أبو أميمة:

واكظموا الغيظ واصفحوا عن مسيء

(صبري، 2011، ص. 77)

يجمع البيت بين مرحلتين: التحكم في الانفعال الداخلي، ثم تجاوز الإساءة الخارجية؛ فلا يقف الخُلُق عند منع الانتقام، بل يرتقي إلى الصفح. وهذه الدلالة وثيقة الصلة بقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 134].

المبحث الثالث: القيم الاجتماعية

أولًا: الرحمة بالضعيف وإغاثة الملهوف

يقول الشاعر في الهمزية:

واتقوا الله في الضعيفين عطفًا وحنانًا

(صبري، 2011، ص. 77)

فالرحمة هنا تبدأ من «اتقوا الله»، وهو ما يجعل رعاية الضعيف مسؤولية أخلاقية مرتبطة بمراقبة الله. ويضيف الشاعر «العطف والحنان»، فينتقل بالقيمة من واجب خارجي إلى شعور داخلي يحرّك السلوك. والأدق علميًا أن يظل معنى «الضعيفين» في حدوده النصية، فلا يُفسَّر تلقائيًا بالوالدين أو بفئة محددة ما لم يثبت ذلك من السياق؛ ولذلك تعتمد الدراسة القيمة العامة، وهي العطف على الضعيف. ويقول بعد ذلك:

وأغيثوا الملهوف جودًا وحلمًا

(صبري، 2011، ص. 77)

وتُظهر «الإغاثة» تحوّل القيمة الأخلاقية من تعاطف سلبي إلى عمل اجتماعي فاعل، إذ يُطلب من الفرد أن يسهم في تخفيف معاناة الآخرين. ويؤكد «الجود» أهمية العطاء، بينما يضيف «الحلم» بعدًا سلوكيًا يعزز المساعدة الإنسانية.

ثانيًا: الإنفاق والجود

يقول:

وأنفقوا المال في المبرّات

(صبري، 2011، ص. 76)

يدل التعبير على أن للمال وظيفة اجتماعية لا فردية فحسب؛ إذ ينبغي توجيهه نحو الخير والنفع العام. ويقوم هذا المفهوم على تصور يصل الملكية بالإحسان، فتغدو الملكية وسيلة للخير لا هدفًا ينحصر في مصلحة صاحبها.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ثالثًا: الوفاء بالعهد

يقول أبو أميمة:

وصلوا العهد بالوفاء دوامًا

فمن الظلم أن يموت الوفاء

(صبري، 2011، ص. 77)

لم يقتصر الشاعر على الدعوة إلى الوفاء، بل صوّر موته ضربًا من الظلم، فارتقى بالفضيلة الشخصية إلى معيار للعدالة في العلاقات مع الآخرين. وفي جعل الوفاء شيئًا «يموت» تشخيص يزيد المعنى أثرًا. ويتصل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34]. غير أن الوفاء يتحول في «هو القدر!» إلى تجربة ذاتية:

سأبقى وفيًّا حافظ العهد صادقًا

أمينًا وربّي يعلم السر والجهر

(صبري، 2011، ص. 189)

وتشير صيغة «سأبقى» إلى الاستمرار، في حين تجمع «وفيًّا» و«حافظ العهد» و«صادقًا» و«أمينًا» صفاتٍ تُعرّف الشخصية العاشقة أخلاقيًا. ويُختم البيت بذكر مراقبة الله، فينتقل الوفاء من تعهد عاطفي إلى التزام داخلي لا يُقاس بنظر الآخرين وحده.

رابعًا: العدل ونصرة الحق

يقول في «سبيل الإيمان»:

واجعلوا العدل إن حكمتم شعارًا

(صبري، 2011، ص. 21)

يرتبط العدل بالحكم، فتنتقل القيمة إلى المجال الاجتماعي والمؤسسي، وتوحي كلمة «شعارًا» بأن العدل ينبغي أن يلازم الحكم دائمًا لا أن يكون موقفًا عابرًا. ويكرر ذلك في الهمزية:

واجعلوا العدل إن حكمتم شعارًا

وانصروا الحق يستحق الثناء

(صبري، 2011، ص. 77)

يميّز الشاعر بين الامتناع عن الظلم وضرورة نصرة الحق نصرة إيجابية، ويتصل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]. وبذلك تتجاوز الأخلاق عنده الصفات الشخصية إلى السلوك في المجتمع وتنظيم علاقاته.

خامسًا: فعل الخير والإصلاح

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

يقول:

وافعل الخير ما استطعت وأصلح

وتسابق في البر والإحسان

(صبري، 2011، ص. 22)

تتلاحق في البيت الأفعال «افعل» و«أصلح» و«تسابق»، وهي تدل على تصور إيجابي للأخلاق؛ إذ لا يكتفي الشاعر بترك الشر، بل يطالب بالمبادرة إلى الخير والإصلاح. وتربط عبارة «ما استطعت» بين التكليف وقدرة الإنسان الواقعية، فيتحول الخطاب من المثال المجرد إلى نطاق الفعل الممكن.

سادسًا: تكامل الرحمة والعدل والإحسان في البعد الاجتماعي

لا تظهر القيم الاجتماعية السابقة مبادئ مستقلة، بل تتداخل لتشكّل تصورًا لسلوك اجتماعي متكامل. فالرحمة لو بقيت شعورًا لظلّت انفعالًا داخليًا، ولذلك ربطها الشاعر بإغاثة الملهوف والإنفاق؛ والعدل إن لم يقترن بنصرة الحق انقلب حيادًا سلبيًا، ولذلك قرنه بنصرة الحق؛ والوفاء لا يبقى عاطفة، بل يرتبط بالعهد واستمراره. وهكذا تنتقل القيم من صفات مجردة إلى علاقات عملية تصل الإنسان بغيره.

ويجمع الشاعر بين قيم قد تبدو متباعدة لأول وهلة: الرحمة والعدل والحلم والجود؛ فالرحمة تتصل بالرفق، والعدل بتنظيم الحقوق، والحلم بضبط الانفعال، والجود بالبذل. ويدل هذا الجمع على أن المجتمع الأخلاقي في الخطاب الشعري لا يقوم على مبدأ واحد، بل يوازن بين حماية الحقوق، ورعاية الضعفاء، وضبط القوة، وتوجيه الثروة إلى الخير. وهذه الرؤية مستمدة من تتابع القيم في النصوص نفسها، لا من نماذج خارجية مفروضة عليها.

وتؤدي صيغ الجمع في الأفعال «اتقوا» و«أغيثوا» و«اجعلوا» و«انصروا» و«أنفقوا» دورًا مهمًا، إذ تنقل المسؤولية من الفرد إلى الجماعة المخاطبة؛ فالشاعر لا يعوّل على أبطال أخلاقيين نادرين، بل يجعل السلوك واجبًا يمكن أن يصير عادة اجتماعية مشتركة. ويؤكد ذلك ورود ألفاظ مثل «العدل» و«العهد» و«الحق» و«المبرات»، وهي ألفاظ ترتبط بالمجتمع والعلاقات والحقوق.

ومن الناحية الفنية، يخفف التصوير من تجريد هذه المفاهيم: فالوفاء يموت، والتواضع حلية يُتزيَّن بها، وهوى النفس حية، والصبر دواء. وهكذا يصبح المبدأ الأخلاقي أيسر حفظًا حين يتحول إلى صورة أو حركة أو فعل، وتظهر وظيفة الشعر وسيطًا بين القيمة الأخلاقية والتجربة الحسية.

ولا ينبغي أن يُظنّ أن كثافة الوصايا في هذه المقاطع تُذهب جمالها؛ فالإيجاز حاضر فيها، وإن تفاوتت درجته من بيت إلى آخر، وحين يوفّق الشاعر إلى صورة أو مقابلة أو تشخيص يتكامل التوجيه مع الجو العام للقصيدة. ومن ثَمّ ينبغي أن يوازن الحكم على الخطاب الأخلاقي بين طابعه الوعظي واللحظات التي ينقلب فيها الوعظ إلى صورة أو مفارقة أو إيقاع.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المبحث الرابع: القيم الإنسانية والدينية

أولًا: القناعة والزهد

يقول الشاعر:

فاقنع من الدنيا بزادك راضيًا

واهجر نعيمًا عاد بالخسران

واترك هداك الله غيّك واستقم

واختر لنفسك خالد البنيان

(صبري، 2011، ص. 74)

تقوم القناعة هنا على الرضا لا على الحرمان، وتتصل بالاستقامة وبالتمييز بين المتاع الفاني وما يراه الشاعر باقيًا. وتتوالى الأوامر «فاقنع» و«اهجر» و«اترك» و«استقم» و«اختر» لتجعل القناعة فعلًا إراديًا واعيًا. وفي الهمزية يقول:

ما الحياة الدنيا سوى دار لهو

تتقضّى متى توارى الضياء

(صبري، 2011، ص. 65)

ثم يشبّهها بسوق مهددة بالانفضاض، فتتحول فكرة الفناء إلى صورتين محسوستين: دار ينتهي لهوها، وسوق لا يدوم اجتماعها. ويترتب على هذا التصوير موقف أخلاقي من الدنيا يقوم على عدم الاغترار بها. ويقول أيضًا:

أين من حاربوا النفوس بزهد

أين تقواهم وأين الوفاء

(صبري، 2011، ص. 65)

وتعبير «حاربوا النفوس» يجعل الزهد مجاهدة داخلية لا مجرد تخلٍّ خارجي عن المتاع. ومن ثَمّ يرتبط الزهد بتربية الإرادة ومقاومة التعلق، لا برفض الحياة والعمل.

ثانيًا: الصدق والأمانة

يظهر الصدق والأمانة بوضوح في البيت الذي مرّ في الحديث عن الوفاء: «سأبقى وفيًّا حافظ العهد صادقًا / أمينًا وربّي يعلم السر والجهر» (صبري، 2011، ص. 189). فالصدق والأمانة يدخلان في تعريف الذات، ويكتسبان بعدًا دينيًا من قوله «وربي يعلم السر والجهر»، إذ يمتد المعيار الأخلاقي من نظر الناس إلى مراقبة الله. وهنا تختلف القيمة عن صورتها الوعظية في الكونيات، لأنها تصدر عن المتكلم وعدًا شخصيًا.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ثالثًا: الكسب الحلال

يقول أبو أميمة:

واطلبوا الرزق طيبًا وحلالًا

واحفظوه بالبر والإحسان

(صبري، 2011، ص. 21)

يُدخل الشاعر النشاط الاقتصادي نفسه في دائرة الأخلاق؛ فمصدر الرزق ينبغي أن يكون مشروعًا، ثم يتصل استعمال المال بالبر والإحسان. وقد ورد ذلك في المقطع المعنون «سبيل الإيمان»، فالصلة الإيمانية ثابتة بالسياق نفسه. ويرد معنى قريب منه في الهمزية (صبري، 2011، ص. 76)، مما يدل على ثباته في خطابه الأخلاقي. ولا يقتصر هذا المعنى على مبدأ ديني مجرد؛ إذ يجعل الشاعر الكسب نفسه مجالًا للمساءلة الأخلاقية، فتتسع دائرة القيم لتشمل الحياة المعيشية اليومية.

رابعًا: مقاومة الشر والعدوان ومجاهدة الهوى

يقول أبو أميمة:

خالف النفس واجتنب كل شر

وتباعد عن حمى العدوان

(صبري، 2011، ص. 22)

تبدأ عملية الإصلاح من الداخل: «خالف النفس»، ثم تنتقل إلى نتائج اجتماعية: اجتناب الشر والابتعاد عن العدوان. ويكشف ذلك أن تهذيب الذات عند أبي أميمة ليس غاية فردية فحسب، بل يؤثر مباشرة في سلامة علاقة الإنسان بغيره. ويقول في الهمزية:

أيها الناس خالفوا طيش نفس

صرفتها عن الهدى الأهواء

(صبري، 2011، ص. 76)

فالهوى يفضي إلى الانحراف، ومخالفة هوى النفس تسهم في استعادة التوازن الأخلاقي. ويبالغ الشاعر في تصوير الخطر فيقول:

وادرؤوا النفس عن سموم الأفاعي

فهوى النفس حية رقطاء

(صبري، 2011، ص. 77)

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وتجسّد الصورة الخطر الأخلاقي بوضوح؛ إذ تتحول الرغبة الجامحة إلى سمّ يهدد الإنسان من الداخل. ويتصل هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40–41].

خامسًا: الاستقامة ومراقبة الله

يقول:

واستقيموا فهو عليكم رقيب

ومحال أن يختفي عنه جاني

(صبري، 2011، ص. 21)

يبني الشاعر الاستقامة على المراقبة الإلهية؛ فيقدّم السلوك أولًا ثم علّته، إذ يأمر بالاستقامة لأن الله رقيب. وبذلك يربط الأخلاق بالعقيدة ربطًا مباشرًا، ويتصل المعنى بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 112]. ولا يخلو من دلالة أن الأصل اللغوي للقيمة، كما تقدم في المبحث الأول، هو مادة (ق و م) الدالة على الاستقامة والاعتدال؛ فالشاعر حين يأمر بالاستقامة يستعمل لفظًا من المادة نفسها التي اشتُق منها مصطلح «القيمة».

سادسًا: تذكّر الموت والمسؤولية الأخلاقية

يتكرر ذكر الموت في المقاطع الوعظية قوةً تعيد ترتيب القيم، لا لبثّ التشاؤم أو تصوير الفناء لذاته، بل في سياقات تدعو إلى الصبر والتوبة والاستقامة ومخالفة الهوى. فحين يأمر الشاعر بذكر الموت «بين آنٍ وآن» فإنه يربط الوعي بالمصير بالمراجعة الأخلاقية المستمرة، كأن تذكّر النهاية يمنع الإنسان من الاستسلام للغرور والرغبات العابرة. وتظهر المعاني نفسها في الصور التي تصف الدنيا بأنها «دار لهو» أو سوق مهددة بالانفضاض؛ فالفناء ليس غاية في ذاته، بل خلفية تحفّز على القناعة والزهد والإحسان، ومع زوال المتاع تبقى قيمة العمل والوفاء والعدل والاستقامة في نظر القصيدة.

وبهذا تصير الثنائية بين الدنيا والآخرة إطارًا يدعم الاختيار الأخلاقي، مع تمييز بين الزهد السلبي والزهد الأخلاقي؛ فالنصوص لا تدعو إلى تعطيل الكسب، بل تؤكد طلب الرزق الحلال في مواضع أخرى، وتدعو إلى العمل وتوجيه المال إلى الخير، ولا تجعل العيش في الدنيا معيارًا نهائيًا للحكم على القيم. ويعزز ربط الاستقامة بالمراقبة الإلهية دوام هذا الوعي، فلا تُؤجَّل المسؤولية، بل تبدأ من الإحساس بأن الله يرقب الفعل، وبذلك يجمع الخطاب بين رقابة الضمير في الحاضر وحساب الجزاء في المستقبل. وقد يمنح استعمال المصطلحات الدينية بعض المقاطع طابعًا تقريريًا، لكنه يمنح الخطاب وحدة فكرية جامعة: الإنسان ضعيف، والدنيا زائلة، والهوى خطر، والموت حتمي. ومن ثَمّ تغدو الاستقامة والصبر والعدل والإحسان أدوات لبناء معنى للحياة يتجاوز اللذات الزائلة، وتُفهم القيم في ضوء ذلك كلًّا مترابطًا لا فضائل مستقلة.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المبحث الخامس: الوظائف الفنية والدلالية للقيم الأخلاقية

أولًا: الوظيفة التوجيهية للأمر والنهي

من أهم سمات الخطاب الأخلاقي تكرار الأفعال الأمرية، مثل: «استقيموا» و«اطلبوا» و«اجعلوا» و«تواصوا» و«اصبر» و«تواضع» و«أغيثوا» و«اكظموا» و«اغضضوا» و«انصروا»، وهي أوامر تتكثف في المقاطع الأخلاقية من «النونية الكبرى» و«الهمزية الكبرى» (صبري، 2011، ص. 21–22، 76–77). ولا يقتصر أثرها على الجانب النحوي، بل يتعداه إلى أسلوب مخاطبة المتلقي؛ إذ تتحول القصيدة من سرد الفضيلة إلى دعوة إلى ممارستها. وبهذا يتضح جانب من الطابع الوعظي الذي رصده الحسيني في شعر الكونيات (الحسيني، 2011، ص. 229).

ثانيًا: الوظيفة التصويرية

لا تظل القيم مفاهيم مجردة؛ فالصبر يصبح «دواءً»، والتواضع «حلية» و«تاجًا»، والوفاء شيئًا يمكن أن «يموت»، وهوى النفس «حية رقطاء» (صبري، 2011، ص. 76–77). وبذلك تؤدي الصورة دورًا مزدوجًا: تُبرز المعنى الأخلاقي وتقوّي أثره في المتلقي. ولا تعتمد قيمة هذه الصور على الزينة اللفظية، بل على قدرتها على نقل القيمة من التجريد إلى المشهد والحركة.

ثالثًا: الوظيفة القصصية والنموذج الأخلاقي

يستخدم الشاعر قصص الأنبياء في شعره الكوني، لكن التحليل لا يفترض أن كل قصة تحمل قيمة أخلاقية واضحة؛ فبعض المقاطع يغلب عليها السرد على بناء معنى أخلاقي مستقل. ولذلك لا تنسب الدراسة قيمة أخلاقية إلى قصة ما إلا إذا دلّ النص عليها صراحة، كذكر أيوب في سياق الصبر والثبات. وهو احتراز منهجي يمنع تفسير القصص الدينية بما لا يثبت في النص، ويقيم استنتاج القيم على الأدلة لا على الافتراضات المسبقة.

رابعًا: التكرار والتوازي

يظهر التكرار في عبارة «يا ابن حواء» التي تجعل المخاطب نموذجًا للإنسان عامة. ويتضح التوازي في تتابع الأفعال «خالف» و«اجتنب» و«تباعد»، يليها «افعل» و«أصلح» و«تسابق» (صبري، 2011، ص. 22). وهو بناء ذو مرحلتين: الابتعاد عن الشر أولًا، ثم التوجه إلى الخير، مما يضفي على الخطاب الأخلاقي نظامًا حركيًا وإيقاعيًا، ويجعل الانتقال من النهي إلى العمل الإيجابي جزءًا من صياغة المعنى.

خامسًا: المقابلة والتضاد

تتضمن بعض المقاطع مقابلة بين الخير والشر، والعدوان والإحسان، والدنيا الزائلة والبقاء الأبدي. وليست هذه المقابلة زخرفة فنية، بل تحوّل القيمة إلى خيار بين طريقين، فتبرز أهمية الاختيار الأخلاقي للمتلقي. وفي سياق «خالف النفس» ينتقل الشاعر من الحث على تجنب الشر والعدوان إلى الحث على فعل الخير والإصلاح والإحسان، فتتوازن الأضداد في بناء منطقي يبيّن السلوك المرفوض والمقبول معًا.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

سادسًا: الإيقاع

تشير دراسة الإيقاع الداخلي إلى أن إيقاع شعر أبي أميمة يتكون من الأصوات والكلمات والجمل، وأنه يؤدي غرضًا جماليًا بتأثيره في المستمع (محمد وأحمد، 2025أ، ص. 97). ويُلاحظ أثر ذلك في تتابع صيغ الأمر والتوازن بين التراكيب الأخلاقية. وقد بيّنت دراسة الموسيقا الخارجية أن الوزن والقافية يسهمان في تماسك أجزاء النص وتحقيق الترابط بين المحتوى والبناء الفني (محمد وأحمد، 2025ب، ص. 16). وهذا مهم في المطولات الأخلاقية؛ إذ تربط القافية الموحدة الوصايا المتتابعة في نسق صوتي واحد، فتتجاوز الموعظة حدود الجملة المفردة إلى بنية شعرية متصلة.

سابعًا: اختلاف وظيفة القيمة بين الكونيات والغزل

في الهمزية يأتي الوفاء خطابًا جماعيًا:

وصلوا العهد بالوفاء دوامًا

فمن الظلم أن يموت الوفاء

(صبري، 2011، ص. 77)

أما في «هو القدر!» فيأتي وعدًا شخصيًا:

سأبقى وفيًّا حافظ العهد صادقًا

أمينًا وربّي يعلم السر والجهر

(صبري، 2011، ص. 189)

ففي الحالة الأولى تؤدي القيمة وظيفة اجتماعية وتعليمية، وفي الثانية تسهم في تشكيل شخصية المتكلم وتطوير تجربته العاطفية. ويبرز ذلك أن القيمة الواحدة لا تؤدي الدور الشعري نفسه في السياقات كلها، وأن التحليل الأخلاقي لا يكتمل إلا بفهم صوت المتكلم وطبيعة المقام الشعري.

ثامنًا: التفاعل بين المباشرة والتصوير

يتنقل الخطاب الأخلاقي عند أبي أميمة بين قطبين: المباشرة التوجيهية والتصوير. ففي بعض الأبيات يصرّح بالفعل المطلوب كما في «استقيموا» و«انصروا الحق»، وفي أخرى يكسو المعنى صورًا تخفف تجريده، مثل «الصبر دواء» و«التواضع تاج» و«الوفاء يموت». ولا يلغي أحد القطبين الآخر، بل يجتمعان في النص نفسه. وتؤدي المباشرة دور الوضوح وسرعة إبلاغ الرسالة، وهو ملائم للمقاطع الوعظية، لكنه قد يضيّق مساحة الإيحاء إذا طالت سلسلة الأوامر. أما الصورة فتفتح مجالًا للتخيل والمشاركة الوجدانية، لأنها لا تكتفي بأمر المتلقي بفعل معين، بل تمنحه رؤية محسوسة للقيمة أو الخطر.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وتتفاوت القوة الفنية للقيم تبعًا لمدى اندماجها في بنية الصورة والإيقاع؛ ومن ثَمّ لا يصح الحكم على المقاطع الأخلاقية كلها بمعيار واحد، فالبيت الذي يكرر مبدأً عامًا لا يملك القوة الفنية نفسها للبيت الذي يبني استعارة أو مقابلة، وإن دعا كلاهما إلى القيمة نفسها. ولذلك يفصل التحليل بين ثبات القيمة ومستوى تشكيلها الجمالي، وهو فرق أساسي في الدراسة الأدبية للقيم.

ويوضح الانتقال إلى الغزل أن القيمة قد تتخلى عن صيغة الأمر وتصير جزءًا من بناء الشخصية؛ ففي «سأبقى وفيًّا» لا يوجّه الشاعر أمرًا، بل يعرض نفسه نموذجًا أخلاقيًا. وهنا تتحول القيمة من معيار خارجي موجَّه إلى عنصر في هوية المتكلم، فيتسع المجال الأخلاقي في الديوان من الموعظة إلى التجربة.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى أن القيم الأخلاقية تظهر بوضوح في شعر إسماعيل صبري أبي أميمة، ولا سيما في «النونية الكبرى» و«الهمزية الكبرى»، حيث تتكرر الأوامر والنواهي والتوجيهات الدينية. ولا يقتصر حضور القيم على شعر الكونيات؛ إذ تمتد قيم مثل الوفاء والصدق والأمانة إلى الشعر الوجداني، فتتحول من قواعد عامة إلى تجارب شخصية. وتبيّن أن الأخلاق في شعره تبدأ غالبًا من الداخل: بمجاهدة النفس، وضبط الهوى، والصبر، والعفة، والحياء، ثم تمتد إلى علاقته بالآخر بالرحمة والعفو والوفاء، وتتسع إلى المجال الاجتماعي بالعدل ونصرة الحق والإصلاح والإنفاق. وتظهر المرجعية الإسلامية واضحة في بعض القيم، غير أن الدراسة لم تعدّ كل قيمة إنسانية حسنة مرادفة للقيمة الإسلامية، كما لم تردّ كل الأوجه الدلالية إلى أصل قرآني مباشر. وفنيًا أسهمت القيمة الأخلاقية في بناء الأسلوب والصورة والإيقاع من خلال الأمر والنهي، والتشخيص، والاستعارة، والتكرار، والتوازي، والمقابلة، والنموذج القصصي. ولذلك لا يمكن فصل المادة الأخلاقية عن الشعرية، وإن ظلّ قدر من المباشرة والوعظ في شعر الكونيات.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

أهم النتائج

1. أظهرت النصوص قيمًا واضحة، أهمها: الصبر، والعفة، والحياء، والتواضع، والعفو، والرحمة، وإغاثة الملهوف، والوفاء، والصدق، والأمانة، والعدل، والإحسان، والقناعة، والاستقامة، والكسب الحلال، ومجاهدة الهوى.
2. يتشكل الصبر بوسائل فنية متعددة، منها الأمر، والصورة الاستعارية، والنموذج القصصي.
3. يرى أبو أميمة أن إصلاح الذات يبدأ من الداخل بمخالفة الهوى، ثم ينعكس على علاقة الإنسان بغيره باجتناب الشر والعدوان.
4. العدل قيمة اجتماعية أساسية، ولا سيما في سياق الحكم ونصرة الحق.
5. تتجاوز الرحمة حدود الشعور إلى الفعل، كإغاثة الملهوف والإنفاق في وجوه البر.
6. يظهر الوفاء في سياقين: أولهما اجتماعي عام، وثانيهما ذاتي وجداني.
7. تتصل قيم أساسية بالإسلام اتصالًا واضحًا، هي: الصبر، والاستقامة، وكظم الغيظ، وغض البصر، والعدل، والوفاء، ومجاهدة الهوى، مقرونةً بأصل قرآني أُورد في التحليل؛ ويلحق بها الكسب الحلال لأن الشاعر أورده في سياق «سبيل الإيمان».
8. تُعدّ صيغ الأمر من الأدوات الأساسية للتعبير الأخلاقي في شعر الكونيات.
9. أسهمت الصورة الفنية في تجسيد المعاني المجردة، كالصبر دواءً، والتواضع تاجًا، والوفاء كائنًا يموت، وهوى النفس حيةً رقطاء.
10. يختلف بناء القيمة باختلاف النوع الشعري؛ فالكونيات أكثر توجيهًا، والغزل أكثر ذاتية.
11. لم يثبت من الشواهد المتحقَّق منها ما يكفي لجعل بر الوالدين محورًا مستقلًا؛ ولذلك استُبعد بدل الاعتماد على استنتاج غير موثق.
12. تُستبعد «ربيبة الكوخ» من شواهد شعر أبي أميمة، ويجب الفصل بينه وبين إسماعيل صبري باشا.

التوصيات

- توسيع دراسة الشعر الوجداني عند أبي أميمة للكشف عن القيم الضمنية التي لا ترد في صيغة وعظ مباشر.
- إجراء دراسة مستقلة لعلاقة البناء الأخلاقي بالاقتباس القرآني في المطولتين، مع التمييز بين الاقتباس اللفظي والتأثر الدلالي.
- دراسة التحول الأسلوبي للقيمة من الموعظة المباشرة إلى التعبير الوجداني والتصوير الشعري.
- مزيد من التحقيق الببليوغرافي لأعمال أبي أميمة منعًا للخلط بينها وبين أعمال إسماعيل صبري باشا.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المراجع والمصادر:

- ابن فارس، أحمد. (1979). *معجم مقاييس اللغة* (تحقيق: عبد السلام هارون). دار الفكر، ج5
- ابن منظور، محمد بن مكرم. (1414هـ). *لسان العرب* (ط. 3). دار صادر. ج12
- إسماعيل، محمود سليمان، وزاهر، جمال عبد الحميد. (2021). صورة المرأة في شعر إسماعيل صبري أبي أميمة. *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس*، (39)، 284-303
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (2003). *الأدب المفرد* (تحقيق: علي عبد الباسط مزيد وعلي عبد المقصود رضوان؛ ط. 1). مكتبة الخانجي.
- الجرجاني، علي بن محمد. (2004). *معجم التعريفات* (تحقيق: محمد صديق المنشاوي). دار الفضيلة.
- الحسيني، عمر عبد العزيز. (2011). إسماعيل صبري المصري (أبو أميمة) شاعرًا. *حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية*، *27*(1)، 149–233. https://doi.org/10.21608/bfda.2011.151696
- رضا، أحمد. (1380هـ). *معجم متن اللغة (موسوعة لغوية حديثة)*. دار مكتبة الحياة.
- الزبيدي، محمد مرتضى. (د.ت.). *تاج العروس من جواهر القاموس* (المجلد 25). دار الهداية
- الشافعي، إبراهيم محمد. (1971). *الاشتراكية العربية كفلسفة للتربية* (ط. 1). مكتبة النهضة المصرية.
- صبري، إسماعيل. (2011). *ديوان إسماعيل صبري*. مؤسسة هنداوي. https://www.hindawi.org/books/83084604/
- الغزالي، أبو حامد. (د.ت.). *إحياء علوم الدين* (المجلد 3). دار القلم.
- المانع، مانع بن محمد. (2005). *القيم بين الإسلام والغرب: دراسة تأصيلية مقارنة* (ط. 1). دار الفضيلة.
- محمد، هناء محمد محمود، وأحمد، وفاء عبد الله محمد. (2025أ). بنية الإيقاع الداخلي في شعر إسماعيل صبري (أبو أميمة). *مجلة كلية الآداب، جامعة أسوان*، *18*(2)، 95–121. https://doi.org/10.21608/mkasu.2025.352302.1421
- محمد، هناء محمد محمود، ومحمد، وفاء عبد الله، (b2025)، الموسيقا الخارجية في شعر إسماعيل صبري. مجلة كلية الآداب، جامعة أسوان، المجلد 2، يوليو، ص 15–33.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. (1999). *الأخلاق الإسلامية وأسسها* (ط. 5). دار القلم.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/